

حال المناقين في المثل القرآني



قال سبحانه: (أَوْ كَصَبَبِ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ طُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتَ وَاللَّهُ مُحَمِّطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّهَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْ فِيهِ وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة/20-19).

- تفسير الآيات:

الصَّبَبُ: المطر، وكل نازل من علو إلى أسفل، يقال فيه: صاب يصوب، وهو عطف على قوله: (كَمَثَلَ الْأَذْي اسْتَوْقَدَ زَارَ) (البقرة/17)، ولما كان المثل الثاني أيضاً مثلاً للمنافقين، فمقتضى القاعدة أن يقول (وكصيبي) مكان (أو كصيبي) ولكن ربما يستعمل (أو) بمعنى (و) قال الشاعر:
نال الخلافة أو كانت له قدرًا
كما أتى ربه موسى على قدر

ويحتمل أن يكون (أو) للتخيير، بأن" مُثُلَ الْمُنَافِقِينَ بِمَوْقِدِ النَّارِ، أو بِمَنْ وَقَعَ فِي الْمَطَرِ.

والرعد: هو الصوت الذي يُسمع في السحاب أحياناً عند تجمعه.

والبرق: هو الضوء الذي يلمع في السحاب غالباً، وربما لمع في الأفق حيث لا سحاب، وأسباب هذه الظواهر اتحاد شحنات السحاب الموجبة بالسالبة ما تقرر ذلك في علم الطبيعيات.

والصاعقة: نار عظيمة تنزل أحياناً أثناء المطر والبرق، وسببها تفريغ الشحنات التي في السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض.

والإحاطة بالشيء: الإدراك به من جميع الجهات.

والخطف: السلب والأخذ بسرعة، ومنه نهي عن الخطفة بمعنى النهبة.

قوله: (وإذا أظلم) بمعنى إذا خفت ضوء البرق.

إلى هنا تم تفسير مفردات الآيات، فلنرجع إلى بيان حقيقة التمثيل الوارد في الآية، ليتضمن خاللها حال المنافقين، فإنّ حال المشبه يعرف من حال المشبه به، فالمعنى هو التعرف على المشبه به.

والإمعان في الآيات يثبت بأنّ التمثيل يبدأ من قوله: (أو كصيّب من السماء) وينتهي بقوله: (وإذا أظلم عليهم قاماً).

وأما قوله: (وَإِنْ مَحِيطاً بِالْكَافِرِينَ) جملة معترضة جيء بها في أثناء التمثيل، وقوله بعد انتهاء التمثيل: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ) يرجع إلى المشبه.

هذا ما يرجع إلى مفردات الآيات وكيفية انسجامها، والمهم هو ترسيم ذلك المشهد الرهيب.

فلنفترض أنّ قوماً كانوا يسرون في الفلووات وسط أجواء سادها الظلام الدامس، فإذا بصيّب من السماء

يتسلط عليهم بغزاره، فيه رعد قاصفة وبروق لامعة تكاد تخطف الأبصار من شدتها وصواعق مخيفة، فتولاهم الرعب والفرع والهلع مما حدا بهم إلى أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم خشية الموت للحيلولة دون سماع

ذلك الصوت المخيف، فعندها وقفوا حيالاً لا يدركون أين يولون وجوههم، فإذا ببعضهم ضمن البرق أثناء لهم

الطريق فمشوا فيه هنيئة، فلما استتر ضوء البرق أحاطت بهم الظلمة مرة أخرى وسكتوا عن المشي.

ونستخلص من هذا المشهد أنّ الهول والرعب والفرع والحرارة قد استولى على هؤلاء القوم لا يدركون ماذا يفعلون، وهذه الحالة برمتها تصدق على المنافقين، ويمكن تقرير ذلك ببيانين:

البيان الأول: التطبيق المفرق لكل ما جاء من المفردات في المشبه به، كالصيّب والظلمات والرعد والبرق، على المشبه، وقد ذكر المفسرون في ذلك وجوهاً أفضلاً ما ذكره الطبرسي تحت عنوان الوجه الثالث.

وقال: إنّه مثل للإسلام، لأنّ فيه الحياة كما في الغيث الحياة، وشبه ما فيه من الظلمات بما في إسلامهم من إبطان الكفر، وما فيه من الرعد بما في الإسلام من فرص الجهاد وخوف القتل، وبما يخافونه من وعيد الآخرة لشكهم في دينهم، وما فيه من البرق بما في إظهار الإسلام من حقن دمائهم ومناكحتهم وموارثتهم، وما فيه من الصواعق كما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل. ويقوى ذلك ما

روي عن الحسن (ع) أذّه قال: (مثل إسلام المنافق كصيّب هذا وصفه).

وربما يقرر هذا الوجه بشكل آخر، وهو ما أفاده المحقق محمد جواد البلاغي (المتوفى 1352هـ)، فقال: الإسلام للناس ونظام اجتماعهم كالمطر الصيب فيه حياتهم وسعادتهم في الدارين وزهرة الأرض بالعدل والصلاح والأمن وحسن الاجتماع، ولكن معاندة المعاذين للحق وأهله جعلت الإسلام كالمطر لا يخلو من ظلمات شدائده وحور بمعاداة من المشركين ورعد قتل وقتل وتهديداً مزعجاً لغير الصابرين من ذوي البصائر والذين أرخصوا نفوسهم في سبيل الله ونيل السعادة، وفيه بروق من النصر وآمال الظفر واغتنام الغنائم وعزّ الانتصار والمنعة والهيبة. فهم إذا سمعوا صواعق الحرب أخذهم الهلع والحدّر من القتل وشبعوا حالهم في ذلك بأنّهم (يَجْعَلُونَ أَصَمًا بِعَاهُمْ فِي آذَانِهِمْ) أجل (الصَّوَاعِقَ حَذَرَ الْمَوْتَ) وخوفاً من أن تخلي قلوبهم من هول أصواتها، وسفهاً لعقولهم أين يفرون عن الموت وماذا يجدون حذراً هم وآمن محيط بالكافرين.

وهذا التقريران يرجعان إلى التطبيق المفرق كما عرفت.

البيان الثاني: التطبيق المركب، وهو إنّ الغاية من وراء هذا التمثيل أمور ثلاثة ترجع إلى بيان حالة المنافقين. وقبل أن نستوعب البحث عنها نذكر نصّ كلام الزمخشري في هذا الصدد. قال الزمخشري: والمصحح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أنّ التمثيلين جميعاً من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة لا يتكلّف لواحد واحدٍ شيء يقدر شبهه به وهو القول الفصل والمذهب الجزل. إذا عرفت ذلك، فإنّ عليك البحث في الأمور الثلاثة:

الأول: إحاطة الرعب والهلع بالمنافقين إثر انتشار الإسلام في الجزيرة العربية ودخول القبائل فيه وتنامي شوكته، مما أوجد رعباً في قلوبهم وفزعًا في نفوسهم المضطربة، ويجدون ذلك بلاءً أحاط بهم كالقوم الذين يصيّبهم الصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق وإليه أشار قوله سبحانه: (أَوْ كَصَبَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ طُلُّمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ).

الثاني: إنّ النبي (ص) لما كان يخبرهم عن المستقبل المظلم للكافرين والمدرّين عن الإسلام والإيمان خصوصاً بعد الموت صار ذلك كالصاعقة النازلة على رؤوسهم فكانوا يهربون من سماع آيات الله ويزدرّون من صواعق برائيته الساطعة، مع أنّ هذا هو منتهى الحماقة، لأنّ صمّ الآذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزل الموت وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (يَجْعَلُونَ أَصَمًا بِعَاهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقَ حَذَرَ الْمَوْتَ وَاللَّهُمَّ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ).

الثالث: كان النبي (ص) يدعوهم إلى أصل الدين ويتلو عليهم الآيات البينة ويقيم لهم الحجّ القيمة، فعندئذ يظهر لهم الحق، فربما كانوا يعزّمون على اتباعه والسير وراء أفكاره، ولكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما يعودون إلى تقليد الآباء، وظلمة الشهوات والشبهات، وإلى ذلك يشير قوله

سبحانه: (يَكَادُ الْبَرْ قُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّهُمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوِا فِيهِ وَإِذَا أَطْلَمَ عَالَيْهِمْ قَامُوا).

إلى هنا تم التطبيق المركب لكن في مقاطع ثلاثة.

ثم إنّه سبحانه أعقب التمثيل بقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَّا هَبَ بِسَمْعَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي إنّه سبحانه قادر أن يجعلهم صماءً وعمياً حتى لا ينفع فيهم وعظٌ واعظٌ ولا تجدي هدايةٌ. وذهاب سمعهم وأبصارهم نتيجة أعمالهم الطالحة التي توصد بباب التوفيق أما م لهم فيصيرون صماءً وبكماءً وعمياً. ثم إنَّ الآيات القرآنية تفسر تلك الحالة النفسانية التي كانت تسود المناقين في مهجر النبي (ص) حيث كانوا في حيطةٍ وحذر من أن تنزل عليهم سورة تكشف نواياهم، كما يشير إليه قوله سبحانه: (يَحْذِرُ الْمُنَذَّرُونَ أَنْ تُذَرَّزَ لَعَلَيْهِمْ سُورَةُ تُذَبَّرُ شَدِّهِمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذِرُونَ) (التوبة/64).

ومن جانب آخر يشاهدون تنامي قدرة الإسلام وتزايد شوكته على وجه يستطيع أن يقطع دابرهم من أديم الأرض، يقول سبحانه: (لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَذَّرُونَ وَالْمُذَرَّينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَذُغْرِيَّنَكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاؤُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلًا * مَلِئُونَ أَيْدِيهِمَا ثُقْفُوا أُخْذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا) (الأحزاب/61-60).

هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التمثيل الوارد في حق المناقين، ولكن المهم تطبيق هذا التمثيل على منافقينا، فدراسة حال المناقين في عصرنا هذا من أهم وظيفة المفسر، فإنَّ حقيقة النفاق واحدة، ترجع إلى إظهار الإيمان وإبطان الكفر لغاية الإضرار بالإسلام والمسيحيين، وهم يقيمون في خوفٍ ورعبٍ، وفي الوقت نفسه صم بكم عمى فهم لا يرجعون.

المصدر: الأمثال في القرآن الكريم